روضة الحكايات!!

(١٧)

مُناي من الدنيا عُلومٌ أبُثُّها!!

الدكتور

محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في زيارةٍ للتاريخ!!

في ندوةٍ تلفزيونية ضَمَّتْ لَفيفاً من العلماءِ الأكاديميينَ ، وكانَ محْورُ الندوةِ حولَ التاريخِ الإسلاميِّ في الأندلس .

قال الوالد (أبونعيم) لأفرادِ العائلةِ الملتفّين حوله : إن المُحاضِرَ الأول هو الدكتور مفيد كان أستاذاً لنا يومَ أنْ كنّا طلاباً في قسمِ التاريخِ في جامعةِ دمشقَ ، والمُحاضرُ الثاني له باعٌ طويلٌ في مَجالِ الكتابةِ والتوثيقِ والتحقيقِ .

وأما الدكتورةُ فهي رئيسةُ قسمٍ من أقسامِ وزارةِ السياحة...

ثم تابعَ القولَ : لذلك فمَنْ أرادَ أن يَستفيدَ من

الندوةِ ، فليُنْصِتْ... ، وإلا فليذهبْ إلىٰ الغُرْفةِ الثانية ، أو إلىٰ حَديقةِ المنزل .

... قال (سامي) : وكمْ هي الفترةُ الزمنيةُ المحدّدةُ للندوةِ ؟

فأجابَه الوالدُ : قُرابة ساعتين .

ساعتين.. يا ساتِر.. و.. ـ هكذا قال (سامي) ـ وكيف سنبقىٰ هكذا دون طعامٍ أو شرابٍ أو تَسْلِيةٍ ؟!

وضَحِكَ الجميعُ... بينما أشارَ الوالدُ إلىٰ الأم... . ، ففهمَتْ ما أرادَ...

وبعد دقائقَ معدودةٍ ، كان طَبَقُ الحلوىٰ أمامَ كبيرِ العائلة... ، فأخذَ سكينةً كانت علىٰ جانِبِ الطَّبقِ... وقسَّم الطبقَ إلىٰ أقسامٍ متقاربةٍ ، بينما تولّىٰ التوزيعَ كبيرُ الأولاد (نعيم)...

... وأخرجتْ (سُهىٰ) من مِحْفَظَتِها قلماً

ودفتـراً.. وراحَـتْ تُسَجِّـلُ بعـضَ المـلاحظـاتِ... وبعضَ المعلوماتِ التي تَسمعُها من المُحاضرينَ...

وبالفعل مرّتِ الفترةُ المخصّصةُ للندوةِ مروراً سريعاً ، وذلك لكثرةِ ما استفادَ أفرادُ العائلةِ منها... . ولأولِ مرّةٍ سَمِعَ بعضُهم بأنّ الأجدادَ المسلمينَ بعد أنْ فَتحوا بلادَ المَشْرِقِ ، انطَلَقوا إلىٰ أوربة...

ففتحوا إسبانية وأَطْلقَوا عليها الأندلسَ!!

ولأولِ مرةٍ سَمِعَ بعضُهم بأنّ الأندلسَ بلغتْ من الحَضارةِ والعِمرانِ ، والعِلمِ والثقافةِ.. والتدريس و... الشيءَ الكثيرَ ، إلىٰ درجةِ أنّ كبارَ العلماءِ في بلادِ الغربِ كان الواحدُ منهم يتفاخَرُ علىٰ أقرانِهِ بأنه تَلَقّىٰ العلومَ من المَدارسِ الإسلاميةِ في الأندلس!

ولأولِ مرةٍ سَمِعَ بعضُهم عن علماءَ فطاحِلَ ،

نشؤوا وتَرَعْرَعوا وماتوا في بلادِ الأندلس ، وعلىٰ رأسِهِمُ الحافظُ والمحدّثُ والفقيه (ابن حزم) .

... فقال (حازم) : ومَنْ هو (ابنُ حزم) هذا ؟ وهلْ عندك في مكتبِكَ كتابٌ يتحدّثُ عنه ؟

... ابتسمَ الوالدُ وقال : لقد اتفقْنا في البدايةِ أَنْ نُنْصتَ إلى هذه الندوةِ العِلْميةِ القيّمة ، وإذا أردتَ الاستفسارَ عن أمرٍ ما ، فعليك أن تُؤَجِّلَه إلىٰ ما بعدَ انتهاءِ الندوة...

وركّز المحاضرونَ في نهايةِ الندوةِ علىٰ أَثَرِ المسلمين في الأندلس خصوصاً وفي الغرب عموماً...

وكذلك علىٰ أهمِّ العوامل التي أدَّتْ إلىٰ تَشَرْذُمِ المسلمين وضَعْفِهم وتَفَرُّقِهم ، مع مقارنَتِها بالعواملِ التي أدّتْ إلىٰ تَشَرْذُمِ المسلمين في هذه الأيام... (وما أشبه الليلة بالبارحة)..!!

... وعَرَضَ التلفازُ شريطاً مصوّراً عن بعضِ آثارِ المسلمينَ في الأندلس ، والتي مازالتْ شامخةً إلىٰ أيامِنا هذه ، مثل قَصْرِ الحمراء في غَرْناطة ، ومَسْجِدِ قُرْطُبَةَ ، ونماذِجَ من المدارسِ التعليميةِ التي كانت مُنتشرةً في زمانِهم...

وبعدَ انتهاء الندوةِ الرائعةِ.. التْفتَ الوالدُ إلىٰ أفرادِ عائلتهِ ثم قال : ما هو تَعليقُكُم علىٰ ما شاهدتُم.. وسمعتُم ؟

.. وأبدىٰ كلٌّ واحدٍ وجهةَ نَظَرِه.. وأَدْلىٰ برأيِه ، وكان هناك إجْماعٌ علىٰ الفائدةِ الكبيرةِ من هذه الندوةِ وأمثالها...

وأما (حازم)... فيبدو أنه مازال يَنتظرُ جوابَ سؤالِه : فمَنْ هو (ابن حزم) ؟

... واقترحَتْ (سُهىٰ) أن يقومَ أحدُ أفراد عائلتِها الذكور... فيجمع ما كُتب عن ترجمةِ حياةِ

(ابن حزم).. ويهذّبها.. ويرتّبها.. ثم يُلْقيَها محاضرة في سلسلةِ المحاضراتِ التي تُقام في المعهد...

... ورَحَّب الوالدُ بالفكرةِ... ووَعَدَ بمساعدةِ مَنْ يتقدّمُ لذاكَ العملِ...

وهَمَسَ (أحمد) في أُذُنِ أخيه (نعيم) : وأنا أساعدُكَ في جَمْعِ المعلومات وتَدْوينِها... ولكنْ لا علاقَةَ لي بإلقاءِ المُحاضرةِ... فأنا خَجولٌ... ولا أحبّ الوقوفَ أمامَ الناس...

واستنْفرَ أفرادُ العائلةِ... وجُمِعَتِ المعلومات... ثم هُذِّبَتْ.. ورُتِّبَتْ..و تمّ تعيينُ وقتِ المحاضرة ، وذلك تحت عنوان : (ابن حزم : جامعة متنقّلة!!)

* * *

بداياتٌ... وشباب!!

ومما قاله (نعيم) في محاضرتهِ عن (ابنِ حزم) ما يلي :

في عَصْر الاضطراباتِ السياسية التي حَدَثَتْ في الأندلس ، حيث التناحُرُ بين العَربِ والبَرْبَرِ علىٰ أَشَدِّه... ، وحيثُ راح بعضُ أمراءِ العربِ في الأندلسِ يَستعينُ بالأعداءِ ضدّ الأمراءِ العربِ الآخرين...!!

... لكنْ من جانبٍ آخرَ يُعَدُّ ذاكَ العَصْرُ عَصْرَ ازدهارِ العلومِ في الأندلس ، حيث تُرجِمَتِ العلومُ من الشرقِ إلىٰ الغربِ ، إضافةً إلىٰ ظُهورِ الفلاسفةِ والشّعراءِ والكتّاب المسلمين .

إضافةً إلىٰ انتشارِ مَجالسِ الغِناءِ والطَّرَبِ.. وانتشارِ الإماء و.. ، وامتزاجِ طبقاتِ المجتمعِ الأندلسي وتنوُّعِها...

في ذَلكم الجوِّ... والعصرِ وُلِدَ ابنُ حَزْم ، وذلك في سنة (٣٨٤هـ) ، ونَشَأَ وتَرَعْرَعَ في أسرةٍ ذات حَسَبٍ ونَسَبٍ ، ومالٍ ومناصبَ...

فوالدُه كان وزيراً... ، وعلى الرغم من ذلك كلِّه ، فقد اتَّجه (ابن حزم) إلىٰ التعلُّم ، فحَفِظَ القرآن الكريم منذ الصِّغَرِ ، ثم حَفِظَ كثيراً من أبياتِ الشِّعر ، وتَتَلْمَذَ علىٰ أيدي عدد غير قليل من العلماءِ الأكابر .

لكنّ (ابنَ حزم) وعائلتَه مرّوا بظروفٍ عصيبةٍ ، من فِتَنٍ وحروبٍ ومشاكِلَ ، حيث كانوا يضطرونَ لتَرْكِ مدينتِهِمْ قُرْطُبَةَ... ويرحلون إلىٰ مدينةٍ ثانية... ثم بعد فترة يعودون إليها ، وهكذا دوَاليكَ!!

وتُحدّثنا ترجمةُ حياتهِ أنه انكبَّ علىٰ دراسةِ علومِ عصرِهِ ، حيث دَرَسَ علومَ القرآنِ ، وعلوم الحَديثِ ، وعلومَ الفِقْهِ ، وخاصةً فِقْهَ الأئمةِ (أبي حنيفة ، والشافعيِّ ، ومالكٍ) ومما امتازَ به أثناء الدراسةِ عَدَمُ انسلاخِ شَخْصِيتِه ، بحيث كان يدرسُ ويـأخـذُ ويستفيـدُ ، لكـنْ ينتقـدُ.. ويُحَقِّـقُ.. ويُمَحِّصُ...

والذي ساعده أكثرَ في جَمْعِ أكبرِ ما يُمكنُ من العلومِ هو عَدَمُ وجودِ ما يَشْغَلُه عن العلمِ ، فقد كان مَوفورَ الرزقِ ، وخاصة مما خَلّفه له والدُه الوزير .

بل كان في كثيرٍ من الأحيانِ يُنْفِقُ علىٰ طَلَبة العلمِ... والتلاميذِ.. من مالِه الخاصِّ!

* * *

في ذروة المجد...

تابع (نعيم) حكايته عن الإمام ابن حزم قائلاً :

وهكذا أصبحَ (ابنُ حزم) مشهوراً بينَ كبارِ العلماءِ ، حتىٰ بينَ علماءِ المَشْرِقِ الإسلاميّ ، وذلك لتنوُّع علومهِ ، وتَبَحُّرِه في ذلك ، ولكثرةِ تآليفِهِ أيضاً..

حتىٰ إنّ العلماءَ أثْنَوا عليه ، قديماً وحديثاً ، من ذلك قولُ الحافظِ ابنِ كثيرٍ : (ابنُ حَزْمٍ الظاهريّ الإمامُ الحافظُ العلامةُ ، اشتغلَ بالعلومِ الشرعيةِ النافِعَةِ ، وبَرَزَ فيها ، وفاقَ أهلَ زمانهِ ، وصنّف الكتبَ المشهورةَ ، وكانَ أديباً ، طبيباً ، شاعراً فصيحاً ، له في الطبِّ والمَنْطِقِ كُتُبٌ ، وكانَ من

بيتِ وزارةٍ ورياسَةٍ ووَجاهةٍ ومالٍ وثَروةٍ...) .

وكتبهُ موجودة في غالبيةِ بقاعِ العالمِ الإسلاميِّ اليومَ ، وهي متعددةُ الأغراضِ ، ومن أهمِّها كتابُه (المُحَلّىٰ) وهو مطبوع في (١٢) مجلداً...

وفي كتاب المحلّىٰ قرابة (٢٣٠٨) مسألةٍ فقهيةٍ ، خالَفَ في بعضِها (ابنُ حَزْمٍ) فقهاءَ المذاهبِ الأربعة... ووافَقَهُمْ في بعضها الآخر..

وهو يعتمدُ في مسائلِه الفقهيةِ علىٰ فِقْهِ القرآن أولاً ، ثم فِقْهِ السنّةِ ثانياً ، ثم فقه الإجماع ثالثاً...

ومن أفضَلِ ميزاتهِ ، أنه في أثناء مناقشاتِه الفقهيةِ تراه يتعمَّدُ التيسيرَ في كلّ شيءٍ ، فحتىٰ أسلوبُه ، نجدُه خالياً من الغموضِ والتعقيدِ ، بحيث يَختارُ المُفْرَدَةَ والجُملةَ البسيطةَ والرقيقةَ ، وكيف لا وهو الذي قال الشعرَ الرقيقَ.. وكَتَبَ

الكتبَ الأدبيةَ ، ومنها كتابُه اللطيفُ (طَوْقُ الحمامة) .

بل كان كثيراً ما يقولُ الشعرَ.. ويُنْشِدُه... بل يتغنّىٰ به . من ذلك قوله :

مُنايَ من الدنيا علومٌ أبثُّها
وأَنْشُرُها في كلِّ بادٍ وحاضرِ
دعاءٌ إلىٰ القرآنِ والسُّنَنِ التي
تَناسىٰ رجالٌ ذِكْرَها في المَحاضرِ

* * *

لكنْ هل انْدَثَرَ مَذْهَبُه وعلومُه ؟!

وخَتَمَ(نعيم) حكايتَه عن الإمامِ (ابنِ حَزْمٍ) بالقولِ :

وبعدَ جهادٍ وكفاحٍ طويل ، أسْلمَ (ابنُ حزم) الروحَ إلىٰ خالقِها ، وكان ذلك سنة (٤٥٦هـ)... ، لكنّ السؤالَ الملحّ : هل استمرَّ مذهبُهُ الظاهريّ.. وانتشرتْ علومُه بعد موتِه ، أم لا ؟

لقد هيّأ اللهُ تعالىٰ له تِلْميذَه (الحميدي) فَنَشَرَ مذهبَهُ في بلادِ المَشْرِقِ ، بينما تأثّر به خَلْقٌ كثير ، وعلىٰ رأسِهِم : الإمامُ محيي الدين بن عربي ، ويعقوب بن عبد المؤمن.. وغيرهما...

وها هي كتُبه وتآليفُه قد طَوَّفَتِ الآفاق... .

فرحمه الله تعالىٰ... فهو بحقٍّ عالمٌ جريء...

شَغَلَ الناسَ حتىٰ بعد موتهِ..!!

والحمد لله رب العالمين

* * *